حوار الرَّحمن - دراسة قرآنية

الأستاذ المساعد الدكتور
راضي حسين حسن علي الحسيني
جامعة الكوفة ـ كلية الفقه
alhossini 555@yahoo.com

Al-Rahman Dialogue The Most Merciful Dialogue

RADHI HUSSEIN HASAN

Asst. Prof. Dr.
Radhi Hussein Hasan Al-Husseini
UNIVERSITY OF KUFA/FACULTY OF JURISPRUDENCE

الملخص:

(حوار الرحمن) مقطوعة قرآنية تمثّل لوحة فنية رائعة تُعبّر عن منتهى الموضوعية والتواضع، وتتضمن مفردات جمالية رائعة لم يلتفت لها الكثيرون، تُأصّل منهج الحوار في حركة التوحيد والدعوة إلى الله تعالى، وتُبيّن النموذج الأمثل لعملية الحوار مع الآخر دون إضطهاد أو إستخفاف أو سخرية، رغم إظهار الآخر ما لا يليق من الاستنكار والاستهجان.

ويستمر الحوار من **(الرحمن)** ببيان الآيات الآفاقية ليرفع من قدر تفكيرهم ووعيهم، ولكن من دون أن يقتنع الآخر، بل يزداد عناداً وعنجهية ونفورا، من هنا يأتي دور بيان الأدلآء على الرحمن، وهم عباده الذين آمنوا به وزادهم هدى، واصطفاهم واختصّهم لنفسه بقوله **(عباد الرحمن)**، فكانوا أدلّاء على الرحمن بسلوكهم وهديهم وإرتقائهم في العبودية والروحانية، ليتولّوا عملية الدعوة إلى الله تعالى من واقع التعاطي والسلوك لا من واقع الحوار فحسب.

الكلمات المفتاحية: عباد الرحمن، الأدلاء على الرحمن، حركة التوحيد، الحوار، الأصالة، الجمالية، الروحانية، العبودية

Abstract:-

The Dialogue of the Most Merciful is a Quranic piece that represents a wonderful artwork that expresses the utmost objectivity and humility. This dialogue contained wonderful aesthetic vocabulary that many researchers did not concentrate on. Where the method of the dialogue was rooted in the movement of monotheism and the call to God Almighty, and it showed the optimal model for the process of dialogue with the other without persecution or mockery and bullying, despite the other person showing what is not appropriate of condemnation and censure.

The dialogue continues from the Most Gracious by showing the verses of the horizons to raise the level of thinking and awareness of the recipient, but without the other benefiting or being convinced of it. On the contrary, they start to increase intransigence and stubbornness. From here comes the role of the people who guide to Al-Rahman, who are His servants who believed in Him and were exalted by Guidance (Huda). Where he lined up and specialized them himself by saying (servants of the Rahman).They became guides to the Merciful through their behaviour, guided them, and elevated them in the ranks of worship and spirituality. They became responsible for the process of calling to God Almighty from the reality of dealing and behaviour, not just from the reality of dialogue.

Keywords: Al-Rahman Servants, Guiders toward Al-Rahman, Unification movement, Dialogue, originality, Aesthetic, Spirituality, Slavery.

المقدمة:

لا شك أنّ المنطلق الأساس لحركة التوحيد هو الحوار، وقد انتشر الإسلام الحنيف بفعل تأثير الحوار، والإقناع القرآني، وآياته البليغة، وقد تأثّر الكثير من العقلاء ببلاغته تأثيراً كبيراً فكان له الدور الكبير في إفتتاح المدينة المنورة وإقناع أهلها ببلاغته وأسلوبه دون أن تُسفك محجمة دم ولذا ورد عنه ﷺ: **((أفتتحت القرى بالسيف وافتتحت المدينة بالقرآن))**(١).

وحوار الرحمن أرقى نموذج وأسلوب في العرض والإقناع والمصداقية، قد لا نجد نظيراً لهذا الحوار بما يتمتّع به من الموضوعية والشفافية والجمالية وقد كتب الكثيرون عن الحوار في القرآن الكريم ولكن **((لم يحظ بدراسة مستفيضة تقف على أبعاده وأغراضه وظواهر تعبيره، لأنّ هدفهم لم يتجاوز رصد أسلوب من أساليب القرآن الكريم))**(٢).

ولا نريد في هذه الدراسة استعراض ما قد تم كتابته وتأليفه من الآخرين أو اجتراره، وإنما نريد أن نبيّن ما هو جديد في هذا البحث، والذي لم يسبقني إليه أحد - حسب اطلاعي -.

لقد تم اختيار مقطوعة من الآيات القرآنية الشريفة التي ربما لم يسلّط المفسّرون عليها الضوء، أو أنهم تناولوها بشيء من العمومية، دون الإلتفات إلى دقائق ما ورد فيها، وإلى مكامن القوة في المنهج القرآني.

ولذا جاءت الدراسة في مباحث أربعة، بين مقدمة وخاتمة، وكما يلي:

المبحث الأول: مفاهيم البحث ومصطلحاته

المبحث الثاني: أصالة منهج الحوار

المبحث الثالث: النموذج الأمثل للحوار

المبحث الرابع: الأبعاد المعنوية لعباد الرحمن

نأمل أن تنال هذه الدراسة استحسان أهل الفن والمعرفة ، وأن يتقبّل الله تعالى منّا هذا الجهد المتواضع إنّه أرحم الراحمين.

المبحث الأول

مفاهيم البحث ومصطلحاته

القارئ الكريم.. البحث الذي بين يديك يتضمن العديد من المصطلحات القرآنية والتي تستدعي التوضيح والبيان، وتناولها هنا بشكل مفصّل يطيل من وريقات البحث ويشتت الأفكار، لذا سنعمد على تناولها في محلها وعند الحاجة إليها، وسنقتصر هنا على بيان مصطلحات العنوان وما يتعلّق به.

أولاً: الحوار لغة

أصله من الحَوْر، ((قال الليث: الحَوْر، الرجوع عن الشيء إلى غيره. قال: والمحاورة: مراجعة الكلام في المخاطبة، تقول حاورتُه في المنطق، وأحرْتُ له جواباً، وما أحار بكلمة))[٣].

قال الأصمعي: ((كلّمته فما رجع إليّ حِواراً وحَواراً وحَويراً ومَحُورَةً بضم الحاء بوزن مشوورة)) [٤].

وقال الراغب: ((الحَوْرُ: التردد إما بالذات وإما بالفكر، وقوله عزّ وجلّ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ (الانشقاق/١٤)، أي لن يبعث. وحار الماء في الغدير: تردَّدَ فيه. والمحاوَرَةُ والحِوار: المُرادّة في الكلام، ومنه التحاور، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ (المجادلة/١)، وكلّمته فما رجع إليّ حَواراً أو حَوِيراً أو مَحُورَة، أي جواباً))[٥].

وقد أجاد ابن فارس فقال: حَوَرَ: ثلاثة أصول

أحدها: لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دوراً.

فالحَوَرُ: شدة بياض العين في شدة سوادها: يقال حوَّرت الثياب أي بيّضتها، ويقال لأصحاب عيسى عليه السلام الحواريون لأنهم كانوا يحوّرون الثياب أي يبيضونها.

وأما الرجوع: فيقال حارَ أذا رجع، قال الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ (الإنشقاق /١٤). والعرب تقول الباطل في حَور، أي: رجع ونقص. وقد استعمل القرآن من المادة: يحور مرة، والمحاورة ثلاث مرات، والحور العين أربع مرات، والحورايين ثلاث مرات[٦].

المُحاوَرَة: ألمجاوَبَة، والتَّحاوَر: التجاوب[٧].

وقال ابن منظور: الحَوْرُ: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وأحارَ عليه جوابه: ردّه. وأحرتُ له جواباً وما أحارَ بكلمة.

وتقول كلَّمتُه فما أحارَ إليّ جواباً، وما رجع إليّ حوِيراً[٨].

اذن فالمراد بالحوار لغة: المرادّة في الكلام

الحوار اصطلاحاً

هو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين أو أطراف متعددة، ((وهو نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحد دون الآخر ويغلب على الحوار الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصّب غالباً))[٩].

والحوار اصطلاحاً: هو عملية الإنفتاح على الآخر عبر مراجعة الكلام وتداوله للوصول إلى تحقيق أهداف محدّدة.

ثانياً: الرحمن

قال أبو جعفر الطبري: ((وأما (الرحمن)، فهو فَعلان، من رَحِمَ، و (الرحيم) فعيل منه، والعرب كثيراً ما تبني الأسماء من (فَعِل يفعل) على (فعلان)، كقولهم من غَضِب: غضبان، ومن سَكِر: سكران، ومن عَطِش: عطشان، فكذلك قولهم (رَحمن) من رَحِمَ، لأن (فَعِلَ) من: رَحِم يرْحم، وقيل (رحيم)، وأضاف قائلاً: (فربَّنا جلّ ثناؤه رحمنَ جميع خلقه في الدنيا والآخرة ورحيمُ المؤمنين خاصَّة في الدنيا والآخرة، فأما الذي عمّ جميعهم به في الدنيا من رحمته فكان رحماناً لهم به)))[١٠].

وقال ابن كثير: ((الرحمن الرحيم: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشدّ مبالغة من رحيم. وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الإتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك عن عيسى عليه السلام أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة))[١١].

وقال الأزهري: ((لا يجوز أن يقال رحمنٌ الا على الله عزّ وجلّ، وفَعلْان من أبنية

ما يُبالغ في وصفه، فالرحمن الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء، فلا يجوز أن يقال رَحَمنٌ لغير الله. حكاية عن الزجاج))[١٢].

وقال ابن منظور: (الرحمن الرحيم) بنيت الصفة الأولى على فَعْلَان لأنّ معناه الكثرة، وذلك لأنّ رحمته وسعت كلّ شيء، وهو أرحم الراحمين فأما (الرحيم) فإنما ذكر بعد (الرحمن) لأنّ الرحمن مقصور على الله عزّ وجلّ، و(الرحيم) قد يكون لغيره. قال الفارسي: إنما قيل بسم الله الرحمن الرحيم فجيء (بالرحيم) بعد استغراق

(الرحمن) معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾))[١٣].

وقال الشيخ الطوسي: (((الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة، وهي النعمة التي يستحق بها العبادة، وهما موضوعان للمبالغة وفي (رحمن) خاصة مبالغة يختصّ الله بها، وقيل أنّ تلك المزية من حيث فعل النعمة التي يستحق بها العبادة لا يشاركه في هذا المعنى سواه.

والأصل في باب فَعَلَ يَفعِل، وفَعِل يَفْعَل أن يكون اسم الفاعل فاعلاً، فإن أرادوا المبالغة حملوا على فَعْلان وفعيل، كما قالوا: غضب فهو غضبان وسكر فهو سكران إذا امتلأ غضباً وسكراً، وكذلك قالوا: رحيم فهو رحمان، وخصّوه به تعالى لما قلناه، وكذلك قالوا: علم فهو عليم أو رحِم فهو رحيم، وعلى هذا الوجه لا يكونان للتكرار، كقولهم: نَدْمان ونديم، بل التزايد فيه حاصل، والاختصاص فيه بيّن))[١٤].

الملاحظات على التعريف

من خلال ما تقدّم يمكننا بيان الملاحظات التالية:

الملاحظة الاولى: لا شك أنّ رحمة الله هي أعم صفاته وأوسعها، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الاعراف/١٥٦)، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الانعام/١٢، ٥٤). بمعنى أنّ الرحمة صفة لازمة لله تعالى وغير منفكّة عن ذاته المقدسة، بل هي عين الذات، وعليه فلا يصح معها القول بأنّ (فعلان) لا يدل على الثبوت بخلاف

(فعيل) لأنّ هذا إنما يصح في الممكنات لا في واجب الوجود.

الملاحظة الثانية: لا يصح القول أنّ (الرحمن) يختصّ بالدنيا، وإنما يشمل الدنيا والآخرة، والآيات التالية تشير إليه: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ (الفرقان/٢٦)، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (مريم/٨٥)، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر/٢٢)، وقد ورد عن الأئمة المعصومين: ((يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما)) وأما ما ورد في بعض الروايات التي تشير إلى اختصاص (الرحمن) بالدنيا فقط فلا بد من تؤيلها أو طرحها لمخالفتها لمنطوق الآيات الكريمة السالفة.

الملاحظة الثالثة: (الرحمن) يفيد التعظيم، لأنه يأتي في الغالب بعد ذكره اسم الذات المقدسة، وهو من الأسماء المختصّة به تعالى. فلا يقال لغير الله تعالى (الرحمن)، فلذا أضحى علم للذات المقدسة [١٥].

ثالثاً: ما المراد بالعباد؟؟

قال الراغب: ((العباد جمع عبد، والعبد على أربعة أضرب: الأول: عبدٌ بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه نحو (العبد بالعبد، وعبداً مملوكاً لا يقدر على شيء)، الثاني: عبد بالإيجاد وذلك ليس الا الله وإياه قصد بقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا﴾. والثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: عبد لله مخلصاً وهو المقصود بقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ...﴾، وعبد للدنيا وأعراضها وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها وإياه قصد النبي ﷺ بقوله: ((تعس عبدُ الدينارِ تعس عبدُ الدرهم)). وعلى هذا النحو يصح أن يقال: ليس كل انسان عبداً لله، فإنّ العبد على هذا بمعنى العابد، لكن العبد أبلغ من العابد، والناس كلهم عباد لله بل الأشياء كلها كذلك، ولكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار، وجمع العبد الذي هو مسترق عبيد، وجمع العبد الذي هو العابد، عباد.

فالعبيد إذا أضيف الى الله أعم من العباد، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فنبّه أنه

لا يظلم من يختصّ بعبادته، ومن أنتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس، وعبد اللات ونحو ذلك))[١٦].

وتلّخص مما تقدّم: أن كلمة (عبد) تجمع على ضربين: الأول : عبيد وهو المسترّق.

والثاني: عباد، بمعنى العبّاد ومفرده العابد، ومن هذا المنظور يكون المراد بعباد الرحمن في الآية الشريفة محل البحث.

المبحث الثاني

أصالة منهج الحوار

حينما نمعن النظر في الآيات القرآنية الشريفة نجد أنّ منهج الحوار هو الاصل في حركة التوحيد والدعوة إلى الله تعالى، وقد أخذ هذا المنهج مساحة واسعة جداً في القرآن الكريم.

وهذا المنهج المتأصّل لم يلجأ إليه القرآن الكريم في حركة التوحيد إضطراراً، أو خوفاً، أو تنازلاً، أو ميوعة، وإنما هو منهج تأصّل في صلب حركة التوحيد والدعوة إلى الله تعالى، مع لحاظ الإرتقاء بالأسلوب والأدب الرفيع في الحوار مع الآخر، مهما تغطرس الآخر وتفرعن، رغبة في إيصال الحقيقة وكلمة التوحيد بكلّ انسيابية وعقلانية، لتحريك الضمائر وإثارة ودفائن العقول للاستجابة لنداء الفطرة التي فُطر الناس عليها، بدل الصراع الميداني والمواجهة المسلّحة.

كما أنّ إقرار هذا الأصل في منهج حركة التوحيد يترتب عليه آثار عملية واسعة في ميادين العمل، منها: فسح المجال لمنطق الحوار ليأخذ أبعاده ومدياته الواسعة في عملية الإقناع الفكري، ومنها: انتهاج النهج الحضاري والأسلوب الأمثل لحركة التوحيد، والدعوة إلى الله تعالى، ومنها: اعتماد الحرية الفكرية دون اللجوء إلى الترهيب أو الترغيب الماديّين، إلى غيرها من الآثار المهمة في صعيد الواقع والمجتمع.

ولكي نستوعب حقيقة هذا التأصيل المنهجي أستعرض عدداً من الآيات القرآنية والمواقف الرسالية للأنبياء والرسل:

أولاً: الآيات القرآنية

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/٣٠). من خلال الآية الشريفة يتبادر إلى الذهن أسئلة عدّة: لماذا حاور المولى عزّ وجلّ ملائكته بما يريد فعله؟؟

وكيف تجرّأت الملائكة بالاحتجاج على الخبر واتهام (خليفة الله) للوهلة الأولى بالفساد وسفك الدماء؟؟

ولماذا تقبّل المولى عزّ وجلّ جرأة الملائكة ولم يعترض على جرأتهم؟؟

كلّ هذه الأسئلة وغيرها تفيد بأنّ منهج الحوار القرآني متأصّل في واقعه، وليس حالة طارئة، فعلى الرغم من أنّ الملائكة هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يفعلون، فهم معصومون ومنزّهون عن المعصية لله تعالى، كما في قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل/٥٠)، على الرغم من كلّ تلك المواصفات القدسية، نجدهم بادروا بالاعتراض والتساؤل والإتهام، ومع كل ذلك وجدنا عدم استهجان المولى عزّ وجلّ منهم، ولم يأمرهم بالسكوت أو التوبيخ، وإنما أخبرهم بأنه هو أعلم منهم. وهذا ما يؤكّد أصالة الحوار في الحركة التوحيدية.

الآية الثانية

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء٦١-٦٢). فعلى الرغم من أن الشيطان العاصي يطلب من الله تعالى أن يبقيه على قيد الحياة إلى يوم القيامة، في مقابل ذلك يقوم الشيطان بإستئصال ذرية آدم بالإغواء، ويستمر الحوار الآلهي مع الشيطان العدوّ اللدود إلى أن ينتهي الحوار بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء/٦٥).

من خلال هذه اللوحة الفنية الحوارية الرائعة نجد أنّ المولى عزّ وجلّ يفسح المجال للعاصي إبليس باستمرار الحوار، فلم يقم عليه الحد للوهلة الأولى رغم أنّه أعلن عدم إطاعة أمر الله تعالى بالسجود لآدم، وإنما تساءل عزّ وجلّ عن سبب عدم سجوده لآدم، وهو يعلم يقيناً بالسبب، ولكنه أراد أن يحاوره ليقيم الحجة عليه من خلال اعترافه بلسانه، وهي رسالة عملية رائعة إلى قادة حركة التوحيد بإعتماد أصالة الحوار في عملة تبليغ الرسالة.

الآية الثالثة

قوله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه٤٣/٤٤). الآية الشريفة أعلاه تفيد بيان الأسلوب الأمثل في عملية الدعوة إلى الله تعالى، ضمن حركة التوحيد ، فقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ هو يعبرّ عن أصالة منهج الحوار بأروع الأساليب الخُلقية الرفيعة، لأنّ الملاحظ للآية للوهلة الأولى يجد - حسب منطق المواجهة - أنّ المناسب لقوله تعالى ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فما يناسب طغيان فرعون وجبروته وغطرسته أن يكون الموقفُ موقفَ مواجهة عنيفة وتحذير وتوبيخ، لا القول اللّين، ولكن القرآن الكريم منطقه منطق حضاري ومتميّز في هذا المجال والمجالات الأخرى، ولذا طمع القرآن بإيمان فرعون بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، وعملية الحوار التي جرت بين نبي الله موسى عليه السلام وأخيه هارون من جهة وفرعون من جهة أخرى، يختمها القرآن بقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طه/٤٧)، فهي تبدأ بالدعوة بالقول اللّين وتنتهي بالسلام والأمن، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أصالة منهج الحوار في حركة التوحيد والدعوة إلى الله تعالى.

ثانياً: السيرة النبوية:

وأما ما يتعلّق بسيرة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله فبيان أصالة منهج الحوار أبين من الشمس في رائعة النهار، فقد ابتدأ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله دعوته الرسالية بقوله: ((قُولوا: لا إلهَ إلا اللهُ تُفلِحوا)) مخاطباً المشركين وقريش، لكنهم لم يَرق لهم هذا الخطاب رغم عقلانيته ومنطقه.

وفي نصٍّ آخر ذكره المفسّرون جاء فيه: ((أنّ النبي صلى الله عليه وآله قام على الحِجر فقال: يا معشر قريش، يا معشر العرب أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، وآمركم بخلع الأنداد والأصنام، فأجيبوني، تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم، وتكونوا مُلوكاً

في الجنّة))[١٧].

إسلام أهل المدينة:

موضوع إسلام أهل المدينة يثبت بلا شك أصالة منهج الحوار في عملية الدعوة إلى الله تعالى، فقد بعث النبي الأكرم ﷺ الصحابي الجليل مصعب بن عمير إلى أهل المدينة ليعلّمهم القرآن، ويفقّهم في الدين فكان يُسمّى المُقرئ بالمدينة وكان منزله على ((أسعد بن زرارة)) فكان يجمع الشباب خارج المدينة ليعلّمهم القرآن، بعيداً عن أنظار شيوخ الأوس والخزرج، وقد أثّرت حركة مصعب بن عمير على أهل المدينة أثراً بالغاً في زمن قياسي، فلم يترك بيتاً في المدينة إلاّ وجعلهم يتلون القرآن، مستعيناً بإسلوب الحوار الهادئ العقلاني في عملية الدعوة الإسلامية بعيداً عن أجواء الصراع والمواجهة العنيفة، متحمّلاً بذلك أعباء المواجهة والتحديات من أجل نشر الإسلام وتعاليمه السمحة.

ولكي يتّضح الموقف بشكل جلي، أشير إلى المواجهة التي حدثت بينه وبين سعد بن معاذ من جهة و أُسيد بن حضير من جهة أخرى بشأن واقعة إسلامهما، وكيف استطاع بحواره العقلاني الذكي أن يقنعهما بالإنتماء إلى الإسلام، وبالتالي إسلام أبناء القبيلة أجمع، فقد نقل ابن إسحاق قصة إسلامهما، فقال ما ملخصّه: ((أنّ أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم وسعد بن معاذ وأُسير بن حضير يومئذٍ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلمّا سَمِعا به. قال سعد بن معاذ لأُسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللّذين قد أتيا دارَيْنا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما وانهَهُما عن أن يأتيا دارينا، فإنّه لولا أنّ أسعد بن زرارة منّي حيث علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، فأخذَ أُسيد بن حضير حَربته ثمَّ أقبل إليهما، فلمّا رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أُكلّمه، قال: فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة !!

فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن... ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تصلي، فقام فأغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد و قومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا نفعل ما أحببت، وقد حُدثتُ أنّ بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنّهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك.

قال الراوي:- فقام سعد مغضباً مبادراً تخوّفاً للذي ذكر له من بني حارثة فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً ثم خرج إليهما... فوقف عليهما متشتماً ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة أما والله لولا بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره؟؟

وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أبي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلّف عنك منهم اثنان، قال - الراوي - فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن... ثم قال لهما وكيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟؟ قالا: تغتسل فتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، فقام فأغتسل، وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامداً الى نادي قومه ومعه أُسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا نحلف بالله رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عَلَيّ حرام حتّى تؤمنوا بالله ورسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا إمرأة إلا مسلماً ومسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل اسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها رجال ونساء مسلمون..))[١٨] انتهى.

فمن خلال الواقعة المهمة أعلاه، يزداد الأمر تجلّياً في أصالة منهج الحوار في عملية الدعوة الإسلامية، ويظهر من خلالها ترقّي أتباع الدعوة الإسلامية في أنتهاج الحوار أصلاً عملياً يلتزمون به ولو عند تهديدهم من قبل الخصم بالقتل واستخدام أساليب المواجهة العنيفة، وكان لهذا الأسلوب الأثر البالغ في نجاح الدعوة الإسلامية في الكثير من موارد الصراع الفكري والعقدي.

وفي هذا المقدار من البحث كفاية في إثبات المطلوب.

المبحث الثالث

النموذج الأمثل للحوار

في هذا المبحث تتجلّى الصورة المثلى للحوار بأبهى صورها جمالية - كما سيتضح - على مختلف الصُعد، الخُلقية والأدبية، والبيانية، وغيرها من الأصعدة. في البدء نستعرض الآيات القرآنية فيما يلي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا * تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا * وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان/٦٠-٦٤) ولكي نسلّط الضوء على مثالية حوار الرحمن فسوف نتناوله بشيء من التفصيل في العناوين التالية:

أولاً: نظم الحوار

عند الإمعان في الآيات الشريفة أعلاه، نجد أنّ القرآن الكريم نظّم الحوار بطريقة فنية رائعة، وذلك بدعوة المشركين إلى السجود للرحمن، بلحاظ أنهم يسجدون للأصنام الحجرية، فمن الأولى أن يسجدوا للرحمن الذي خلقهم وخلق ما ينحتون، ولكن وجدنا

الصدود من قبل المشركين، والإستخفاف والإستنكار بقولهم (وما الرحمن) بدعوى أنّهم لا يعرفون الرحمن معنىً ومصداقاً ورفضوا السجود بل زادهم الأمر نفوراً، فلذا مقابل هذا النفور والاستنكار لابد للمولى عزّ وجلّ أن يرشدهم إلى آيات الرحمن، فجاءت الآية التالية لتبيّن قدرة الرحمن في خلقه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا . .﴾ الآيات. فأراد أن يوسّع في آفاق تفكيرهم ويجعلهم يتفكّرون في خلق السموات والأرض والأفلاك والبروج والشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار، ولكن كل تلك الآيات لم تنفع معهم ﴿وَمَا زَادَهُمْ نُفُورًا﴾. وعليه فلابد من استكمال صورة بيان آيات الله في خلقه، فبعد أن استنكروا (الرحمن) وأنفوا عن السجود للرحمن أراد القرآن أن يرشدهم إلى مَن هم جسّدوا طاعة الرحمن والتزموا أوامره، فجاءت الآيات تبيّن صفات (عباد الرحمن)، حيث أنّ هذه الصفوة من العباد التزمت طاعة الرحمن، بمعنى أنّهم يمثّلون الأدلّاء على الرحمن، بلحاظ أنّهم تجسّدت فيهم الصفات الخلقية والعبادية التي ميّزتهم عن غيرهم، فلذا أضحوا بطاعتهم والتزامهم أدلّاء على الرحمن ، ليكونوا الدعاة الى الله تعالى، وهذا هو أبلغ طريق في التأثير عن إجراء الحوار مع المستنكر والمعاند.

اذن أنّ نظم الآيات الشريفة تسلسل في عملية الحوار بدعوة المشركين السجود للرحمن، ثم استنكارهم عمّا هو المراد بالرحمن، ثم إباءهم السجود والطاعة لله تعالى.

وهنا لابد من بيان عظمة الرحمن في آياته الآفاقية فأشار الى خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار والشمس والقمر، لكن كل تلك الآيات الآفاقية لم تنفع في إقناعهم، انتقل مسرح الحوار باتجاه بيان الأدلّآء على الرحمن، وهم عباده، الذين جسّدوا طاعة الرحمن، ليرغّبهم فيما أمرهم به، وليقتفوا أثرهم بما تحلّوا به من صفات خلقية وتربوية وروحية رائعة تستقطب العقلاء وأولي الألباب.

وقد أشار الطبرسي إلى ما يقرب من المعنى المذكور أعلاه، فقال ما نصه: ((وجه اتصال الآية بما قبلها: أنّ فيها إخباراً أنه سبحانه أفرده بالإرسال مراعاة لحسن التدبير في تمييزه بالإكرام والإجلال، لعلمه بما فيه من الخلال الموجبة في الحكمه إرساله إلى الخلق على غاية الكمال. فعلى هذا يتعلّق بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾))[١٩] انتهى.

من خلال ما تقدّم تبيّن روعة نظم الحوار ونظم أساليبه التدريجية في عملية الإقناع الفكري والعَقَدي.

ثانياً: جمالية الحوار

الآيات القرآنية السالفة تمثل لوحة فنيّة رائعة تستقطب اهتمام أولي الألباب لينهلوا من ينبوعها الصافي ويرسموه لهم منهجاً في حياتهم للدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي بيّنة جليّة لمن كان له قلب ينبض بالجمال، وذوق سليم يستذوق الفن، وحس مرهف يتحسّس بشعور جمالية الحوار وفنّه ((فالإنسان خليفة الله في أرضه وأرقى مخلوقاته وأفضلها على العالمين، هو أجدر المخلوقات بأن يدرك هذا الجمال في علّته وجوهر حقيقته التي خلقه بها الله، وذلك عندما تتصل روحه بالله، ويتوجّه إليه بحس مرهف، وروح شفيفة وبداهة طليقة، ووجدان متفتح لما وراء المادة والشكل الظاهر إلى جوهر الكون وحقيقته الأبدية))[٢٠].

كما لابد للإنسان الواعي أن ينمّي في نفسه وعقله معرفة الأدوات الجمالية والفنية، كي يستذوق الفن القرآني وجماليته، ليعيش مع الأجواء القرآنية بجماليتها وفنونها ((فالهدف الأساسي من تنمية التذوّق الفني هو مواجهة الأُميّة الجمالية حتّى يمكن إيقاظ إحساس الفرد ليصبح واعياً بالجانب الجمالي للبيئة التي يعيش فيها. وإذا لم نسعَ إلى محو الأمية الفنية فأننا حتماً سنحصل على مجتمع فاقد الذوق، إنّ عدم الإهتمام بتربية الأفراد تربية جمالية معناه أنّ لدينا أفراد فاقدي الحس لهم عيون ولكنهم لا يبصرون))[٢١]. وليست هذه اللوحات الفنية القرآنية بدعاً من القول، بل إنها تتجسّد في الآيات القرآنية الشريفة، وبحاجة إلى إبراز مظاهر الفن الذوقي فيها كي يتحسّسها القارئ الكريم، بل يستشعرها بذوقه الذهني، فيتفاعل معها ليعكسها في منطقه وتعاطيه، وتعميق صلته بالقرآن والعقيدة.

فهي ((لوحات تصويرية حية تبدو شاخصة للعيان بأشكالها الحية وهيئاتها التي تموج بالحركة وبخطوطها، وألوانها وظلالها ، بإجمالها وتلخيصها ودقائقها وتفاصيلها، وفي هذه اللوحات القرآنية يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني في كل متكامل لا ينفصل، فعلى المستوى الأول تتحقق الدعوة وترسخ العقيدة وعلى المستوى الثاني تستثار الانفعالات الوجدانية وتستشعر اللذة الفنية والمتعة الجمالية، وهكذا يملك القرآن الكريم تلك القدرة

السبحانية العظمى على أن يصور بالألفاظ والكلمات ما تعجز عن تصويره الريشة الملونة أو العدسة المصورة))[٢٢].

بعد هذه الإطلالة في بيان جمالية الحوار القرآني، أود أن أُشير إلى مفرداتها في محل البحث، ضمن الموارد التالية:

المورد الأول: الترقي في أدب الحوار

حينما ندرس الحوار الذي جرى بين الرحمن عزّ وجلّ من جهة، وما أمر الله تعالى نبيّه الكريم بتوجيه المشركين بالسجود للرحمن، نجده أعتبرهم نداً للرحمن ولم يلحظ عبوديتهم له، ووجوب طاعتهم بموجب الخلق والرزق ومختلف النعم، كما أنه عندما رفضوا السجود للرحمن مستنكرين ومستنكفين فلم ينعتهم بنعوت بذيئة ولم يتوعدّهم بالوعيد والويل، وإنما اقتصر على وصف حالتهم بقوله ﴿وَمَا زَادَهُمْ نُفُورًا﴾، وكما أنه لم يعدم الأمل في إصلاحهم، بل أخذ يواصل الحوار معهم ويعرض عليهم آياته الآفاقية لعلهم يرجعون إلى رشدهم، هذا المعنى الراقي في أدب الحوار يلمسه مَن ﴿أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

المورد الثاني: جمالية التواضع:

على الرغم من إستنكار المشركين ورفضهم أمر السجود بدعوى عدم معرفتهم بالرحمن عزّ وجلّ، مما دعاهم لاستعمال أداة الإستفهام (ما) التي تفيد أنّ مدخولها مبهم وغير عاقل، إذ لم يستفهموا بالأدة (مَن)، وعلى الرغم من كل ذلك نجد أنّ القرآن الكريم يثبّتها كما قالوها، دون أن يكنّي عنها أو يعرض عنها، وإنما أثبتها كما هي، وهذا سرّ من أسرار قمّة التواضع في عملية الحوار مع الآخر.

المورد الثالث: جمالية حرية الحوار

على الرغم من أنّ المولى هو الطرف الأقوى في الحوار، لكنّه لم يتوعّد الخصوم هنا، ولم يشترط للحوار شروطاً مسبقة، أو أنه يأنف من حوارهم، فأجرى الحوار معهم رغم غطرستهم وعنجهيتهم، مع كامل حريّتهم في الإعتراض والتصريحات المشينة وغير اللائقة، ورغم الصدود من جهتهم، لكنه يستمر في حوارهم رغبة في إستمالتهم إلى جانب الحق،

وبلوغهم للرشد المعرفي، وجمالية حرية الحوار في حوارآت القرآن الكريم رائعة جداً، وهي بذاتها تعطينا درساً بليغاً لانتهاجه في مساحات الحوار الفكرية مع الآخر، أياً كان الآخر.

المورد الرابع: جمالية إستعراض القدرة الإلهية

هذا المقطع القرآني مملوء بالجمال والحكمة والقدرة، وإظهار الرغبة في ارتقاء الإنسان فكرياً في مجال التأمل بآيات الله الآفاقية، خلق السموات والآرض، والشمس، والقمر، وتعاقب الليل والنهار إلى غيرها من الآيات العظيمة التي تستدعي الإنسان للتأمل فيها والإنفتاح لمعرفتها بدل الجحود والإعراض، دعوة إلهية لبني البشر ليتفكروّا في خلق السموات والأرض، فجاءت الآية الشريفة مشيرة الى ذلك المعنى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان/٦٠-٦٢). هذه القدرات الإلهية كلّها سُخرّت للإنسان لينتفع بها في مجمل حياته وليعي خلقهنّ، وبالتالي يتفكّر في كيفية تسخيرهنّ لتطوير حياته، ما أروعه من استعراض لخلق الله وقدرته.

المورد الخامس: جمالية درس التوعية

حينما نتأمل إسلوب المشركين في عملية المواجهة الحوارية نلمس بوضوح عدم جدّيتهم في موضوعات الحوار، وإنما الرغبة في إظهار حالة الإستخفاف والسخرية والإستنكار، والهدف من ذلك كله هو إسقاط روح الحماس لدى الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله تعالى، وبالتالي محاولة تشويه الصورة الرسالية الناصعة والطعن بها وإحباط نجاحها وانتشارها.

وهنا يجب على الداعية الرباني أن يتعقّل هذه الأساليب من قِبل خصوم الرسالة في مجال السخرية والإستهزاء والتنكيل، لينطلق في المجتمع بوعي كامل دون أن تؤثر هذه الأساليب الدنيئة على حركته في المجتمع والدعوة إلى الله تعالى، وذلك من خلال ما لمسناه بوضوح في ضوء الآيات الشريفة وكيفية جدّية المولى عزّ وجلّ في الحوار مع المشركين على ما هم عليه من العناد والاستنكار، لكن نجد أنّ المولى عزّ وجلّ يتسلسل في عملية الإقناع الفكري ومحاولة الإرتقاء بهم علمياً، كما لو أنّهم كانوا صادقين في عملية حوارهم غير آبهٍ بسخريتهم واستنكارهم، وهذا ما ينبغي أن نتّخذه درساً بليغاً في عملية الدعوة إلى الله تعالى والحوار مع

الآخر غير متأثرين بأجواء السخرية والاستهزاء، وإنما الإستمرار في عملية الحوار الجاد كما لو كان الآخر جاداً في حواره، لعلّه يتذكرّ أو يخشى، طمعاً في إقناعه وهدايته، إنطلاقاً من الرغبة والحب له، للإرتقاء به إلى ما أنعم الله تعالى علينا بمعرفته وهدايته.

إذ ليس المراد من عملية الدعوة إلى الله تعالى إضافة رقم إلى رصيد حضيرة الإيمان وتعدادهم، وإنما المنطلق الأساس هو أداء الوظيفة الإلهية من جهة، والرغبة الأكيدة الصادقة لنجاة الآخر ونجاحه في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس/٩-١٠).

فالتزكية قصة نجاح كبير في الدنيا والآخرة، والتدسية قصة خيبة وخسران في الدنيا والآخرة.

المبحث الرابع

الأبعاد المعنوية لعباد الرحمن

بعد أن أبى المشركون للسجود للرحمن والدخول في طاعة الله تعالى معلنين استنكارهم للرحمن وإظهار عدم معرفتهم به وأنّه أمر مبهم بالنسبة إليهم عناداً وتكبراً واستعلاءً في الأرض، فأراد المولى عزّ وجلّ أن يرتفع بهم إلى فهم الآيات الآفاقية للرحمن وخلقه، ولكنهم زادهم نفورا، وهنا يقتضي أن ينهي عملية الحوار معهم للوصول إلى نهاية المطاف، ولكن الأدب الرفيع الذي تحلّى به النبي الأكرم ﷺ وبتوجيه من القرآن فتح لهم أفقاً جديداً رأفةً بهم وحرصاً عليهم فأخذ المولى عزّ وجلّ يُبيّن لهم الآيات الأنفسية بعد عدم إدراكهم الآيات الآفاقية، فاستعرض صفات شريحة من خلق الله ممّن وصفهم بعباد الرحمن، وكأنّه أراد أن يقول لهم إذا لم تعرفوا الرحمن ولم تتفهمّوا معنى الرحمن، فتعالوا تعرّفوا على عباد الرحمن وهم بين أظهركم فإن عرفتموهم فستعرفون الرحمن، ولذ قلنا هؤلاء الأدلاء على الرحمن، بما نعتهم الله تعالى ب (عباد الرحمن) وقد اشتملوا على صفات غاية في الأهميّة والإرتقاء لينالوا درجة الأدلاّء على الرحمن وقد اشتملت هذه الصفات على أبعاد معنوية عديدة أشير إلى أهمّهما.

البعد الأول: بُعد العبودية

إنّ هذا البُعد يمثّل الإطار الجوهري الذي أطّر شخصيّات هؤلاء فاتّسموا به فهو يؤطّر

كل حركاتهم وأفعالهم وأفكارهم فلذا يمثّل البُنى التحتية لهم التي انبعثت في ضوئه جميع الأبعاد الفوقية الأخرى.

بلحاظ أنّ العبودية لله تعالى في حقيقتها جوهرة كنهها الربوبية كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((العبودية جوهرة كنهها الربوبية، فما فقد من العبودية وجد في الربوبية، وما خفي في الربوبية أصيب في العبودية))(٢٣).

فالعبودية تدلّ على الربوبية دلالة الأثر على المؤثّر، والمعلول على العلّة، والربوبية تظهر من العبودية ظهور العلّة من المعلول، فلذا قلنا أنّ هؤلاء هم الأدلّاء على الرحمن.

فما فقد وارتفع من تلك الحقيقة المفتقرة من افتقارها إلى المؤثّر والمبقي في بادي النظر وجد بأدنى تأمل في الربوبية، بمعنى أنّ العبودية كلّما تعمّقت وتجسّدت في واقع العبد حصل من الربوبية قرباً معنوياً يمكّنه من استقبال الفيوضات الإلهية النورانية، فيتحلّى بمعطيات الربوبية، وأما إذا فقد من العبودية ما ينبغي عليه، فسوف يسدّ على نفسه الفيوضات النورانية من الربوبية.

وأمّا ما خفي في الربوبية أي خفي على العبد معاني الربوبية، قطعاً تتصدّع وتتأثر حقيقة العبودية و واقعيتها، فكلّما يطلّع العبد أكثر على معاني الربوبية يزداد قرباً معنوياً منها.

فالعلاقة مع الله تعالى كلّما تعمّقت وتأصّلت كلّما حصل الإنفتاح الأوسع على الله تعالى، وبالتالي يحصل العبد على معطيات الربوبية في واقع حياته.

فهذه العبودية أورثت (عباد الرحمن) حريةً حرية الإنعتاق الكامل عن كلّ ما يكبّل الإنسان في انطلاقته نحو الله تعالى.

وهذه العبودية تختلف إختلافاً جذرياً عمّا تعلّق بأذهاننا عن مصطلح العبودية المعاصر، فالعبودية لله تعالى تحتاج إلى وعي كبير ليتم التعاطي مع معانيها الضخمة في واقع الحياة ليتحرّر بها الإنسان عن كل ما يجعله أسيراً لما هو غير (الرحمن)، أسيراً لشهواته، وأسيراً لغفلاته، وأسيراً لرغبات نفسه، فينطلق بإتجاه التحرّر المطلق نحو الرحمن المطلق، وبهذا كلّه إستحقّوا أن ينعتهم الرحمن بـ (عباد الرحمن) وبهذا أيضاً أضحوا الأدلّاء على الرحمن.

البعد الثاني: بعد الدعوة إلى الله تعالى

حينما نتأمل المقطع القرآني ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾. ذهب أغلب المفسرين على اقتصار معنى المشي على عنوان انتقال الإنسان من مكان لآخر، ومعنى (الهون) المراد به التواضع والهدوء أثناء عملية المشي[٢٤] أي بمعنى لا يتبخترون في مشيهم وإنما يمشون بتواضع، فحسب.

ونحن نسجّل تحفّظنا على هذا اللون من التفسير، وفقاً للمعطيات التالية:

أولاً: إنّ المشي بهدوء وتواضع وإن كان صفة حسنة ولكنه بحدّ ذاته لا يجعل الشخص عنواناً كبيراً يكون دالّاً على الرحمن، ليجعل منه دليلاً على ربوبيته.

ثانياً: إنّ ذيل الآية الشريفة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ يؤيّد ما ذهبنا إليه، بلحاظ أنّ عملية المواجهة عادة لا تحصل للذين يمشون بدون تبخترٍ وبهدوء، إنما تحصل المواجهة، عندما ينطلق الإنسان في عملية الدعوة إلى الله ويتحرك في المجتمع فتحصل عملية المواجهة مع المخالفين والمناوئين.

وعندما تحصل عملية المواجهة مع الخصوم يكون لهم من الحكمة في القول السديد والموقف السليم الذي ينجّيهم من عملية الصراع، نظير قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل/١٢٥).

فحينما يتصدّون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحصل عملية المواجهة، ويحصل الاعتراض فكيف ينجون منها؟؟ ينجون منها بواسطة القول السديد والموقف السديد، والسلام من القول ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾.

أما مجرد أن يمشي الإنسان بهدوء مطرقاً برأسه إلى الأرض عادة لا يعترضه أحد، ولا يكون لمشيه بهذه الطريقة أثر للدلالة على الرحمن عزّ وجلّ.

ثالثاً: أنّ هؤلاء يمثلّون قادة المجتمع - كما سيأتي - بدعائهم وطلبهم من الله تعالى ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، فهؤلاء القادة انطلاقتهم في المجتمع بوعي وحركية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله تعالى وليس مجرد المشي بتواضع

وهدوء، وقد أمتدح الله تعالى فعلهم بقوله ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك/٢٢).

بمعنى الذي ينطلق في المجتمع بوعي حركي إيماني على صراط مستقيم قطعاً أهدى من الذي يكون مكبّاً على وجهه فاقداً للوعي الإيماني وغير داعياً إلى الله تعالى.

لهذه الأسباب أسجل تحفظي على ذلك اللون من التفسير والاقتصار عليه فحسب.

البعد الثالث: بعد الروحانية

حينما نتأمل هذا المقطع القرآني من الآية الشريفة ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ فهم يقضون ليلهم بالتهجّد لا بالهجود، وبالسهر لا بالنوم والسبات، وإنما يحيون ليلهم بالمناجاة الإلهية والانقطاع إلى الله تعالى قياماً وقعوداً وسجوداً لا رقوداً وهجوداً.

فينفتحون على الله بمناجاتهم وتضرّعهم ليستقووا بها على حركتهم في النهار بالدعوة إلى الله، فيستمدّون منه العزيمة والقوة في مواجهة طواغيت النهار.

فالعبادة بهذا اللون من المعرفة تتوفرّ على جانب مهم وهو جانب الروحانية، بمعنى: الروحانية المأخوذة من الروح، وأنّ الروح وجود مجرّد من المادة، فالروحانية تطلق ويراد بها ما يقابل الجسمية، وعلماء الأخلاق لا يعنون بها الجانب التجريدي، وإنما يريدون بها الجانب المعنوي الذي يمثّل الحقيقة المطلوبة من وراء ظاهر العبادة، فأحياؤهم الليل بالعبادة بهذه العزيمة والتهجّد والمناجاة والإنقطاع الى الله تعالى، فتنفتح لهم آفاق واسعة تنير قلوبهم، وتضيء طريقهم اللاحب ليواصلوا نهارهم في الدعوة إلى الله تعالى، ليكونوا الأدلّاء على الرحمن عزّ وجلّ.

البعد الرابع: بعد الروح القيادية

الروح القيادية إنما تتحقق إذا ما توفّرت العناصر الأساسية في الشخصية الرسالية، كالإلتزام السلوكي، والوعي الديني والمعرفي والمنهج العملي في الدعوة إلى الله تعالى، قال عزّ وجلّ ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف/١٠٨).

فهي ليست مجرد تمنيّات ورغبات ودعاء، وإنما بحاجة إلى بناء الشخصية القيادية على أُسس متينة لا تنهار أو تنهزم عند المواجهة في الميدان. فلذا نجد أنّ المولى عزّ وجلّ بعد أنّ تناول مواصفات عباد الرحمن من الروحانية والتوازن في الإنفاق، والإعتدال في التعامل والسلوك، والاستقامة على المنهج، والاستذكار الدائم لآيات الله تعالى، إلى غيرها من المواصفات الإيمانية عندئذ أشار الى دعائهم بقوله: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان/٧٤).

ومن الجدير بالذكر أنهم انطلقوا في دعائهم للوهلة الأولى بتحصين الكيان الداخلي لهم ﴿أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ والإرتقاء بهم إلى مستوى قرّة العين، في مجال الإيمان والوعي والإستقامة في السلوك والطاعة، وبعد تحقّق وبناء هذا الكيان الداخلي الخاص بهم، انطلقوا نحو مجتمع الإيمان والتقوى ليطلبوا التوفيق في قيادته بإتّجاه مرضاة الله تعالى.

ومن المعلوم أنّ هذا الدعاء والطلب من الله تعالى ليس مجرد أماني وإنما يستوجب أن تكون لهم الأهلية الكاملة لقيادة المتقين، وإلا كان دعاؤهم مردوداً عليهم، ولردّه الله تعالى، كما قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات/١٤).

ولّما لم يردّهم الله تعالى وإنما لبّى لهم ما طلبوه، فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ (الفرقان/٧٥).

يا لها من أهلية إرتقائية، فقد بلغوا الذروة في الكمال والمعرفة والتقوى وبلغوا بها قمّة الهرم، فأضحوا بذلك أدلّاء على الله تعالى، ليقودوا مجتمع الإيمان قيادة ربانية هادية.

تلك أهم الأبعاد المعنوية لعباد الرحمن، ذكرناه بإقتضاب رعاية للإختصار.

الخـاتمة:

وفي ختام هذا البحث أود أن أُشير إلى النقاط التالية:

١- إنّ اعتماد حركة التوحيد في تبليغ الرسالة في الأساس على الحوار، الحوار الموضوعي العلمي الهادئ، من أجل إقامة الحجة على الآخر، وليكون على بيّنة من

الأمر، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء/١٥).

وقال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال/٤٢).

٢- إنّ حوار الرحمن يمثّل أرقى مستويات الحوار، من حيث المبدأ، والأدب، والإحترام للآخر، والموضوعية والهدفية، والإنصاف، والمصداقية، والشفافية، والتكافئ، من دون تهديد أو وعيد، وقد لمسنا ذلك بوضوح فيما تقدم من بيان.

٣- الآيات الشريفة التي تم إختيارها تمثّل النموذج الأمثل للحوار، بلحاظ أنّ الخصم تحدّى الذات الإلهية مستنكراً متمرداً عن معرفته بإسم (الرحمن) مستفهماً عنه بما هو مبهم، ووجدنا القرآن الكريم ثبّتها كما هي دون أن يكنّي عنها أو أن يعرض عنها.

وهذا ديدن القرآن الكريم حتّى مع رسل الله تعالى وأنبيائه، فحينما يصفه الجاهلون والمعاندون والمشركون بالجنون أو السحر أو الشعر، فنجد أنّ القرآن الكريم يرسم تلك المسميات كما هي، من دون أن يغيّرها أو أنه يشير إليها دون ذكرها.

وهذا بحدّ ذاته درس بليغ بل في غاية البلاغة لأهل المعرفة والوعي في عملية الحوار مع الآخر.

٤- (عباد الرحمن) يمثّلون القدوة والأسوة الحسنة بما أجتمعت فيهم الصفات النموذجية في مختلف الأصعدة، العبادية، والروحية، والسلوكية، والاجتماعية، وغيرها من الصفات، فأضحوا النموذج الأمثل لمصطلح (عباد الرحمن)، فقد إستخلصهم الله تعالى لنفسه لما لهم من الأهلية لأن يكونوا عباداً له، فعبوديتهم التي إفتخروا بها حققّت بُنى تحتية أنتجت بُنى فوقية إستحقّوا بها أن يكونوا أئمّة للمتقين، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: ((الهي كَفى بي عِزّاً اَنْ اَكُونَ لَكَ عَبْداً وَكَفى بي فَخْراً اَنْ تَكُونَ لي رَبّاً اَنْتَ كَما اُحِبُّ فَاجْعَلْني كَما تُحِبّ))[٢٥].

وفي نهاية المطاف نسأله تعالى أن يجعلنا من عباده المخلصين، وأن يعتق رقابنا من النار، وأن يوفقنا لخدمة الدين والدعوة إلى الله تعالى. إنه نعم المولى ونعم النصير. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هـوامـش البحث

(١) كنز العمال، للمتقي الهندي: ٢٣٠/١٢.
(٢) الحوار في القرآن الكريم، محمد إبراهيم شادي: ١٧.
(٣) تهذيب اللغة، للأزهري: ١٤٦/٥ - ١٤٧.
(٤) المعجم في فقه القرآن وسرّ بلاغته، مجمع البحوث الإسلامية:٢١٢/١٤، والمصدر السابق أيضاً.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: مادة (الحور)، وإنظر مفردات الراغب مع ملاحظات العاملي: ٢٦٧/٢٦٦.
(٦) مقاييس اللّغة، لإبن فارس: ٢٣١/٢٣٠.
(٧) الصحاح، للجوهري: ٢٩٣.
(٨) لسان العرب، لإبن منظور: ٣٨٤/٣ - ٣٨٥.
(٩) في أصول الحوار، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي: ١٠ - ١١، نقلاً عن الحوار في القرآن الكريم، لعبده الحميدي: ٤٩/١، وانظر الحوار في القرآن، للسيد محمد حسين فضل الله: ٢٤/١.
(١٠) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لإبن جرير الطبري: ١٢٦/١-١٢٨.
(١١) تفسير القرآن العظيم، لإبن كثير: ٢٢/١ ، وإنظر الصحاح، للجوهري: ٤٣٣.
(١٢) تهذيب اللغة، للأزهري: ٣٣/٥.
(١٣) لسان العرب، لإبن منظور: ١٧٣/٥-١٧٤، وإنظر البيان في تفسير القرآن، للسيد الخوئي: ٤٣٠-٤٣١.
(١٤) التبيان في تفسير القرآن، للشيخ الطوسي: ٩٩/١-١٠٠، وقريب منه ما ورد في مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: ٥٤/١.
(١٥) انظر مواهب الرحمن في تفسير القرآن، للسيد السبزواري: ١٧/١-٢١.
(١٦) تفسير ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ٤١٩/١ ، مفردة (عبد).
(١٧) تفسي نور الثقلين، للحويزي: ٣٦/٣.
(١٨) السيرة النبوية، لابن هشام: ٧٨/٢-٨٠.
(١٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي:٣٠٢/٧.
(٢٠) التصوير الجمالي في القرآن الكريم، د. عيد سعد يونس:/٦.
(٢١) المصدر السابق: ٨٩.
(٢٢) التصوير الفنّي في القرآن، لسيد قطب: ٣٤.
(٢٣) مصباح الشريعة، للإمام الصادق عليه السلام: ١٧.
(٢٤) انظر: تفسير الطبري: ٥٣٢/٢٠، وتفسير القرطبي: ١٥م٤٦٥-٤٦٧، وتفسير إبن كثير: ٣٢٠/١٠، والمحرر الوجيز، لإبن عطية: ٢١٨/٨، والتبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٤١٠/٧، ومجمع البيان للطبرسي: ٣١٠/٧-٣١١، نعم ذكر الطباطبائي في تفسيره: ((الأشبه حينئذٍ أن يكون المشي على الأرض كناية عن

عيشهم بمخالطة الناس ومعاشرتهم فهم في أنفسهم متذللون لربّهم ومتواضعون للناس لما أنّهم عباد الله غير مستكبرين على الله ولا مستعلين على غيرهم بغير حق)) الميزان: ٢٣٨/١٥.

(٢٥) تصنيف نهج البلاغة، للبيب مضمون: باب (٧١) العبادة.

قائمة المصـــادر

١- القرآن الكريم.

٢- البيان في تفسير القرآن، للسيد أبي القاسم الخوئي، مؤسسة دار الثقلين- قم ، ط١٤٢٥/٤هـ.

٣- التبيان في تفسير القرآن، للشيخ محمد بن الحسن الطوسي، ت: ٤٦٠ هـ، مؤسسة الأعلمي - بيروت ، ط١٤٣١/١هـ - ٢٠١٠م.

٤- التصوير الجمالي في القرآن، لعيد سعد يونس، عالم الكتب، القاهرة ، ط١٤٢٧/١هـ - ٢٠٠٦م.

٥- التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب، دار الشروق - القاهرة.

٦- تصنيف نهج البلاغة، للبيب مضمون، مكتب الإعلام الإسلامي - قم ، ط٣ ، ١٤١٧هـ.

٧- تفسير الطبري ((جامع البيان عن تأويل آي القرآن))، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: ٣١٠هـ، دار ابن الجوزي - القاهرة، ط٢٠٠٨/١م.

٨- تفسير القرطبي ((الجامع لأحكام القرآن))، لأحمد بن أبي بكر القرطبي ، ت: ٧٦٠هـ ، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١٤٢٧/١هـ - ٢٠٠٦م.

٩- تفسير نور الثقلين، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، ت ١١١٢هـ ، مطبعة الحكمة.

١٠- تفسير القرآن العظيم، لإبن كثير، ت: ٧٧٤هـ ، دار المعرفة - بيروت ، ط١٤١٧/٩هـ - ١٩٩٧م.

١١- تهذيب اللّغة، لمحمد بن أحمد الأزهري ، ت: ٣٧٠هـ ، دار إحياء التراث - بيروت، ط١٤٢١/١هـ - ٢٠٠١م.

١٢- الحوار في القرآن الكريم، عبده عبدالله الحميري، مكتبة خالد بن الوليد - اليمن.

١٣- الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية، محمد إبراهيم شاوي، دار اليقين - مصر، ط١/ ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٤- السيرة النبوية، لإبن هشام أبي محمد بن عبدالملك بن هشام المعامزي ت: ٢١٣هـ ، مكتبة العبيكان - الرياض، ط١/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٥- الصحاح، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ت ٣٩٨هـ ، دار الحديث - القاهرة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

١٦- في إصول الحوار، نقلاً عن الحوار في القرآن، للسيد محمد حسين فضل الله.

١٧- كنز العمال، للمتقي الهندي، ت٩٧٥هـ ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٨- لسان العرب، لإبن منظور، ت: ٧١١هـ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤١٥هـ -١٩٨٨م.

١٩- مجمع البيان في تفسير القرآن، للفضل بن الحسن الطبرسي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ط١/ ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٠- المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي.

٢١- المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته، تأليف قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلامية.

٢٢- مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، ت: ٤٢٥هـ ، طبعة النور - قم ط٤/١٤٢٩هـ.

٢٣- مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مع ملاحظات العاملي، دار المعروف - بيروت.

٢٤- مقاييس اللّغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس، ت: ٣٩٥٣، دار الحديث - القاهرة، ط١/ ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٢٥- مصباح ا لشريعة، منسوب للإمام الصادق عليه السلام.

٢٦- مواهب الرحمن في تفسير القرآن للسيد عبد الأعلى السبزواري، مؤسسة المنار - بيروت، ط٣/ ١٤١٤هـ.

٢٧- الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ط١/١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.